يكن عند الله في خلقه هيِّن وأهون، فـ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١].

وهنا ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ هي من عساكر البراهين القرآنية على أن خلق الإنسان الأول ليس إلَّا بقفزة طينية، دون انتسال من حيوان آخر إنساناً أو غير إنسان، ومن غريب الوفق العددي بين النطفة والطين أن كلًّا منهما يُذكر (١٢) مرة!.

ولو أن الإنسان كان خليق التكامل لكان صحيح التعبير عن خلقه عبارة آخر الحلقات، ولا إشارة لخلقة غير طينية للإنسان في القرآن كلِّه.

ولأن «كم» تعم الأرواح إلى الأجساد، بل الأرواح أحرى في الكيان الإنساني من الأجساد، فقد تعني ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ خلق الأرواح من الطين كما الأجساد، وكما تدل عليه أمثال: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾[٢] وسائر الآيات المصرحة بخلق الإنسان - بجزئيه - من تراب - طين - ماءٍ - نطفة أماهيه من مادة.

و«قلوبهم» وجاه «أبدانهم» في الأثر، قد تعني أرواحهم، وذلك من تجاوب الكتاب والسنة في جسمانية الأرواح كما الأجساد مهما اختلف جسم عن جسم[٣].

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٣) نور الثقلين ١: ٧٠٢ في أصول الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن ربعي ابن عبد الله عن رجل عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «إن الله عز وجل خلق النبيين من طينة عليين قلوبهم وأبدانهم وخلق قلوب المؤمنين من تلك الطينة وجعل خلق أبدان المؤمنين من دون ذلك وخلق الكفار من طينة سجين قلوبهم وأبدانهم فخلط بين الطينتين فمن هذا يلد المؤمن الكافر ويلد الكافر المؤمن ومن ها هنا يصيب المؤمن السيئة ومن ها هنا يصيب الكافر الحسنة فقلوب المؤمنين تحن إلى ما خلقوا منه وقلوب الكفار تحن إلى ما خلقوا منه».

ذلك، وإلى لمسة ثالثة هي الحيطة الربانية على الكون كلِّه:

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾:

ولا تعني ﴿فِي﴾ هنا ظرفية هذا الكون لذات الله سبحانه، إنَّما هو ظرف لألوهيته وربوبيته للكون كله. فـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[1] رداً على مزعمة أن ألوهيته خاصة بالسماوات وللأرض رب مخوّل من عنده أمن هو؟.

وأما ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾[2] فهم عمال الله من ملائكة السماء وليس هو الله كما فصلنا القول فيه عندها.

كلّا! بل إن ربوبيته تعالى تشمل السماوات والأرض على سواءٍ، و﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ على سواء، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ في مثلث الزمان على سواء، وهو في مستقبله أخفى من ﴿سِرَّكُمْ﴾ إذ لا تعلمون أنتم مستقبل مكاسبكم ونياتكم وطوياتكم: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[3].

و﴿مَا تَكْسِبُونَ﴾ هنا قد تعم مكاسب السر والجهر في النشآت الثلاث، إلى ﴿مَا تَكْسِبُونَ﴾ من نيات وطويات وأعمال في المستقبل بمكاسبها.

وقد تعني ﴿سِرَّكُمْ﴾ هنا ما أسررتم وأنتم تعلمون، أمّا أسِرَّ عنكم وأنتم تجهلون، وهو الأخفى من السرِّ.

ذلك، وخير تفسير لآيتنا هذه في آية الزخرف (٨٤) وعلى ضوئهما ما يُروى من حوار بذلك الشأن عن الامام الصادق عليه السلام حيث يُجيب بعدما يسأل عنها: «كذلك هو في كلِّ مكان» قال: بذاته؟ قال: ويحك إن الأماكن أقدار، فإذا قلت: في مكان بذاته، لزمك أن تقول: في أقدار وغير ذلك،

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٤.
(٢) سورة الملك، الآية: ١٦.
(٣) سورة طه، الآية: ٧.

ولكن هو بائن من خلقه، محيط بما خلق علماً وقدرة وإحاطة وسلطاناً وليس علمه بما في الأرض بأقل مما في السماء، ولا يبعد منه شيء، والأشياء له سواء علماً وقدرة وسلطاناً وملكاً وإحاطة[١].

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾:

﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ هي الآيات الدالات على ربوبيته تكويناً وتشريعاً، أم قد تعم الآيات الأنفسية إلى الآفاقية، وإيتائها - إذاً - بروزها مهما أخفوها أو اختفوا عنها، فقد تبرز الآيات الفطرية إذا انقطعت الأسباب وحارت دونه الألباب، فينقطعون اضطرارياً إلى الله ثم هم معرضون: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[٢].

ولا يعني إعراضُهم عن آيات ربهم إلَّا إعراضهم عن ربهم تعمية عليهم كونه وكيانه، وهم يعيشون آيات ربهم ليل نهار!.

ذلك، والمفروض على من يعرف ربه أو يحتمل كونه أن يفتش استنباطاً عن آياته حتى تكتمل معرفته به على ضوئها، وحتى الذي ينكره، عليه أن يبرهن على نكرانه فليفتش عما يدعي كونه من آياته، فإما سلباً كما خيّل إليه - ولن يكون - وإمَّا إيجاباً كما تهديه إليه فطرته وعقليته والكون بأسره، حيث الكائنات ككلّ هي براهين ساطعة قاطعة على وجود الله وتوحيده.

والمشتاق إلى ربه، المفتاق إلى هدايته ورحمته، ليس ليصبر حتى تأتيه آياتٌ من ربه، بل ويفحص عنها فحصاً باحثاً ماحصاً غير قالص ولا فالس، ولكي يزداد به إيماناً وفيه اطمئناناً.

---

(١) تفسير البرهان ١: ٥١٧ - ابن بابويه بسند متصل عن محمد بن النعمان قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] قال: «هو كذلك في كلّ مكان»....

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

فالناس وِجاه آيات ربهم على ضروب شتى، فمنهم من يفتش عنها، ومنهم المعرض عنها، ومنهم عوان بينهما، فالأولون هم المتقون والآخرون هم الطاغون، والعوان بينهما عوان بينهما.

وهذه موجة عريضة في مطلع السورة، تخاطب ضمير الإنسان بدليل آيات الرب الكامنة في الأنفس، والمكتملة في الآفاق.

وليس ذلك خطاباً لاهوتياً فلسفياً يختص بالمتفلسفين واللّاهوتيين، إنما هو خطاب موجه إلى كلِّ الفطر والعقول والحواس والعلوم في كلِّ الحقول على درجاتها.

والتذكير بآيات ربهم هو الموجه الغامرة الكون كلّه، بكلِّ الآيات الربانية آفاقية وأنفسية، وترى ما هو سبب إعراضهم عن آيات ربهم حين تأتيهم؟:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾:

«الحق» - ككلّ - الآتي من قبل الحق، المزود بآيات ربوبيته، إنهم كذبوه إعراضاً عنها كيلا يصدقوه، ومثلهم كمثل من قال عنهم نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾[1].

ذلك ﴿فَسَوْفَ﴾ في مثلث النشآت ﴿يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ومن أنبائه هنا عذاب الاستئصال، ومن ثم عذاب البرزخ والقيامة.

ولأن النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، وهو يعم واقع النبإ إلى الإخبار به، لذلك فقد تشمل الإنباء مثلث النشآت إخباراً وواقعاً، مهما لم تفدهم أنفسهم

(١) سورة نوح، الآية: ٧.

إلّا هنا لو كانوا ينتبهون كما في قوم يونس، أم ولا أقل من إفادتها سائر الناس، وأما في البرزخ والقيامة فلا فائدة لهم منها إلَّا بائدة.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ۝٦﴾:

القرن - وهو الردْف والاقتران - وهم هنا القوم المقترنون في زمن واحد متصل، ولأن العمر المتعود للإنسان لا يعدو مائة سنة، لذلك سُميت قرناً قضيةَ اقترانهم في كلِّ مائة مائة، انقراضاً للسابق وافتتاحاً للّاحق، فقد لا يختص القرن بذلك الزمن المحدد، حيث الأصل هو كلُّ ردح زمني لأمة تعيشه، مائة إما زاد أو نقص.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ رؤية تأريخية جغرافية بما وصلتهم من أنباء مَن ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ وقد ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ - ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1].

﴿مَّكَّنَّاهُمْ﴾ بسلطات زمنية وقدرات مالية ورحمات منها غزيرة، ولكنهم - بما كانوا يجحدون بآيات الله وما كانوا يستهزئون - ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ دون أن تغنيهم عن بأسهم مُكنتهم ولا عن بؤسهم مكانتهم ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ مثل قرنهم، قرناً بهم بعدهم ليبلوهم فيما آتاهم، فـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾[2] و﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾[3] فـ ﴿هَلْ تُحِسُّ

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٦.
(٢) سورة مريم، الآية: ٧٤.
(٣) سورة ق، الآية: ٣٦.

مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾[١]؟ كلّا بل ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[٢] وقد مضى يوم خلاص!.

فالذنوب هي التي تخلِّف الهلاك، هنا نزيراً، وهناك بعد الموت غزيراً، ومن رحمات الله على المؤمنين أن قد يأخذهم بذنوبهم هنا كيلا يؤخذوا بها هناك وأين أخذ من أخذ؟.

وهنا ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ تعني جماعة بعدهم إذ أهلكوا بالطاغية.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾:

هؤلاء المعرضون عن آيات ربهم لا يفرِّقون بينها في تكذيبهم مهما تطلبوا كتاباً في قرطاس ينزل من السماء ملموساً لهم بأيديهم حيث يتقولون قولتهم الفاتكة الهاتكة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فما تفيدهم إذاً آياتٌ مقترحات كما سواها من آيات.

لقد اقترح مشركون ومعهم كتابيون تنزيل كتاب من السماء، فكما لهؤلاء: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾[٣] كذلك لأولاء ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً...﴾[٤].

إذاً فتجاوبهم في تحقيق آيات مقترحات - ولا سيما التي ليست هي في

(١) سورة مريم، الآية: ٩٨.
(٢) سورة ص، الآية: ٣.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

الحق بآيات - إنه تجاوب معهم في التكذيب والاستهزاء بها وتهديرها وتهذيرها دون إهدائها أو تحذيرها.

وهنا ﴿كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ﴾ تبيِّن أن هؤلاء الحسيين الناكرين لما وراء الحس بلغوا في عناد النكران لحدٍّ ينكرون المحسوس الملموس كما ينكرون غير المحسوس، لأن تصديق ذلك المحسوس ذريعة إلى تصديق لغير المحسوس.

وترى تنزيل كتاب في قرطاس مستحيل كما تدل عليه ﴿وَلَوْ﴾؟ والله على كلّ شيء قدير! إنه مستحيل مصلحياً في أبعاد: «أن نازل كتاب الوحي من السماء لمحة إلى أن المُنزل هو ساكن السماء وليس به، وإن مَنزل الوحي هو قلب الرسول وليس حسَّه حتى ينزل عليه كتاب في قرطاس، ثم في تحقيق اقتراحهم هذا مسايرة معهم في باطل حيث هم بعدُ منكرون.

ذلك! وكما ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾[1].

ذلك إنما هو من خلفيات نكرانهم البغيض الحضيض، فليس الذي يجعلهم يعرضون عن آيات ربهم أن البرهان على صدقها قاحل أو ضعيف، أو غامض لا يعرفه إلّا عباقرة، أو أنها تختلف فيها أرباب العقول، إنما هو المكابرة الغليظة البغيضة والعناد الصفيق السحيق.

ثم ومن عاذرتهم كما يهوون أن لم يبعث الله إليهم ملكاً يحمل وحيه وهم شاهدوه:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾:

(١) سورة الحجر، الآيتان: ١٤، ١٥.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ يصدقه ونراه يوحي إليه لنا، أفلم يكن - إذاً - برهانه أمتن وتصديق أمكن؟

والجواب الحاسم أولاً ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ وثانياً ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا . . .﴾ فما هو الأمر المقضي؟

هل هو قضاء أمر الحياة فلا تكليف - إذاً - فلا نتاج لنزول الملائكة؟

كما ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾[1] واستحقاق قضاء الأجل بالشرِّ ليس ليحيل نزول الملائكة، وقد يؤمنون لو أنزلت!.

«أم هو قضاء أمر الحياة استئصالاً لهم إذ لا يؤمنون؟» ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[2] فـ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا وَيَوْمَ . . . تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾[3] ولماذا يستأصلون حيث يجوز إيمانهم إن شاء الله!. أم هو قضاء أمر التكليف لأن انقلاب الغيب إلى الشهادة يرفع الابتلاء والتمحيص، فـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[4] وكيف - إذاً - يزول دور التكليف؟.

علَّ الأمر المقضي هو مجموع الأمور، إذ لو آمنوا عند نزول الملائكة فلا ابتلاء بتكليف، ولو أنهم كانوا من أهل الإيمان ببرهان لكفاهم برهان

(١) سورة يونس، الآية: ١١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١١.
(٣) سورة الفرقان، الآيات: ٢٢-٢٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

الرسالة الذي تقبله العقول، فإن آمنوا قضي الأمر تكليفاً وإن لم يؤمنوا قضي أمر حياتهم باستئصالهم كما هو سنة الله فيما بلغت الحجة مبلغ النار على المنار والشمس في رابعة النهار.

إذاً فلا طائل لهم تحت نزول الملائكة إلَّا زوال التكليف أم زوالهم، فهو مستحيل في الحكمة الربانية التي تربي العباد بما يُصلحهم.

والمحاولة الرئيسية القرآنية هي إخراج الإنسان من دائرة المحسوس الضيقة إلى إدراك أن هناك غيباً في ذاته، ظاهراً بآياته، والرسالة الملائكية تغلق ذلك المجال دون الإدراك الانساني، فهي - إذاً - نكسة إلى الوراء وارتجاع إلى الجاهلية المادية التي ليست لتصدق وراء المادة، وهو بالمآل ينهي إلى نكران التجردية الإلهية.

وجواب ثان عن ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾:

فإضافة إلى أن نزول الملك عليهم أو على الرسل بحيث يرونهم ليس إلّا عند قضاء الأمر، وأنه لا يناسب المرسل إليهم البشر فـ ﴿لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[1].

فلو تخطينا أمثال هذه الموانع في نزول ملك رسول أو ملك مع الرسول يرونه، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ حتى يروه ويسمعوه، فعادت المشكلة المزعومة لهم حيث يرونه رجلاً وهو ملك فلا ينتفعون بكونه ملكاً ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ بملك في صورة رجل ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ على أنفسهم.

وهذه قاعدة مطردة عادلة أن الله يلبس على الإنسان ما هو يلبسه. فلما

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٥.

لبس هؤلاء المكذبون لآيات ربهم طور الرسالة الربانية على أنفسهم، فقد يلبس الله عليهم - لو حقق ما اقترحوه - أن يجعله رجلاً، عوداً لمشكلتهم كما كانت، كما وهي طبيعة الحال في رؤية الملائكة لمن ليست لهم عيون تقدر على رؤيتهم بصورهم الأصلية، ثم ﴿رَجُلًا﴾ هنا - بأحرى من ﴿رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾[1] في سواها - دليل انحصار الرسالة في الرجال دون النساء، وفيه لمحة اختصاص القيادات روحية وزمنية، شاملة أماهيه في قبيل الرجال.

ذلك ولقد نزلت هذه الآية لما احتج المشركون على الرسول ﷺ فقال: «اللهم أنت السامع لكلِّ صوت والعاصم بكلّ شيء تعلم ما قاله عبادك»...[2].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٩.

(٢) نور الثقلين ١: ٧٠٤ عن الاحتجاج للطبرسي عن أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام أنه قال: قلت لأبي علي بن محمد عليه السلام هل كان رسول الله ﷺ يناظر اليهود والمشركين إذا عاتبوه ويحاجهم إذا حاجوه؟ قال: بلى مراراً كثيرة إن رسول الله ﷺ كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة - إذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش - إذ ابتدأ عبد الله بن أبي أمية المخزومي فقال: يا محمد! لقد ادعيت دعوى عظيمة وقلت مقالاً هائلاً، زعمت أنك رسول رب العالمين وما ينبغي لرب العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله بشراً مثلنا ولو كنت نبياً لكان معك ملك يصدقك ونشاهده بل لو أراد الله أن يبعث إلينا نبياً لكان إنما يبعث إلينا ملكاً لا بشراً مثلنا، ما أنت يا محمد إلّا رجلاً مسحوراً ولست بنبي فقال رسول الله ﷺ: «اللهم... فأنزل الله عليه يا محمد «وقالوا»... ثم قال رسول الله ﷺ: وأما قولك لي: ولو كنت نبياً لكان معك ملك يصدقك ونشاهده، بل لو أراد أن يبعث إلينا نبينا لكان إنما يبعث إلينا ملكاً لا بشراً مثلنا، فالملك لا تشاهده حواسكم لأنه من جنس هذا الهواء لا عيان منه ولو شاهدتموه بأن يزاد في قوى أبصاركم لقلتم ليس هذا ملكاً بل هذا بشر لأنه إنما كان يظهر لكم بصورة البشر الذي ألفتموه لتعرفوا عنه مقالته وتعرفوا خطابه ومراده فكيف كنتم تعلمون صدق الملك وأن ما يقوله حق، بل إنما يبعث الله بشراً وأظهر على يده المعجزات التي ليست في طبايع البشر الذين قد علمتم ضمائر قلوبهم فتعلمون بعجزكم عما جاء به أنه معجزة وأن ذلك شهادة من الله بالصدق له، ولو ظهر لكم ملك وظهر على يده ما =